الجليد .. يذوب: بين موسكو والقاهرة!

تنفرد مجلة" أكتوبر " بنشر بعض " أوراق " الرئيس أنور السادات التي يتحدث فيهـا عـن " التكوين النفسي والسياسي" في مرحلة من حياته... وسوف نجد أنه يساير الأحداث الصـغيرة في حياته، طالبا ريفيا بسيطا، وضابطا شابا متحمسا، دفع الكثير بسبب حماسـه وإخلاصـه وحرصه على أن يساهم بشيء في كل ما يدور حوله... ولكنه لم يتوقف لا عن القراءة والفهم ، ولا عن المشاركة في الحياة العامة....

و" أوراق" السادات أن لم تكن تسجيلا لحياته وعرضا تاريخيا لها، فهي دعوة إلـى الأجيـال القادمة أن تقلب في أوراق تاريخ مصر والعالم من حولنا، لعلنا نجد جميعا ما ينفعنـا وينفـع مصر، فهذا هو أقدس واجباتنا...

وهذه الأوراق تنفض التراب والجليد عن طريق يضيق ويتسع، ويعتدل ويلتوي بنـا وعلينـا، وبين القاهرة وموسكو....

وكان السير في هذا الطريق أو السير عليه أو بمقتضاه تجربة مريرة، ذهابا وإيابـا، انسـدادا وانفتاحا، قبل 67 وأثناءها وبعدها.. وحتى اليوم....

أريد أن أصور لنفسي كيف تجمعت في رأسي وقلبي الأفكار والأحلام منذ طفولتي...

وتبلورت بعد ذلك في معان واضحة ومحددة أو في معان أحاول أن أوضحها، أمـلاً فـي أن أحقق شيئا من ذلك.

تماما كما تتصاعد أبخرة المياه وتتحول إلى سحب والسحب تجيء من أماكن بعيدة ثم تهـبط مطرا..

أو كما تتساقط الأمطار في أعالي النيل وتتحول إلى جداول صغيرة... والجداول تتحول إلـى أنهار صغيرة ..

ثم إلى نهر النيل العظيم.. كذلك كانت أفكاري وأحلامي.. كلها جاءت من سـنوات طفـولتي البعيدة . ثم تدافعت واحتشدت واتجهت بي واتجهت بها إلى العمل في السياسة والمشاركة في الحياة العامة، أو محاولتي أن أفعل ذلك...

وكل إنسان تكون آماله وهمومه الكبرى في عقله.. وفي وجدانه هكذا...

أقول هذا وأنا أحاول أن أجسم أمام نفسي وأمام الأجيال الشابة كيف كانت اهتماماتي بالحياة العملية في سن صغيرة.

فالأحداث كانت من حولي كثيرة، والناس يتكلمون عنها ويشعلون خيالنا.. فنتساءل ونحاول أن نعرف معتمدين على قدراتنا الصغيرة وعلى ثقافاتنا الضئيلة...

وليس في قلوبنا إلا حب مصر والإيمان بالله . فأنا شديد الإيمان، فأنا ريفي، ولا أزال . وأكرر ذلك كثيرا. ولذلك فأنا شديد الإيمان، وشديد التمسك بالقيم الأخلاقية، وبالأرض. ولا أستطيع أن أحتمل من يمس ديننا وتقاليدنا العريقة أو يدوس أرضنا.. وكان الإنجليز يحتلون أرضنا من عشرات السنين. وربما كان سبب تكراري لهذه المعاني، أن لدى ما أعتز به، وما أدعو الناس أن يفعلوه مثلي. فالذي تملكه مصر، أم الحضارة شيء كثير تفخر به ونتباهى به بين الأمم...

ولما جاء والدي من السودان مع الجيش المصري سنة 1924 ، كنت ما أزال في قريتنا" ميت أبو الكوك"....

وأخذنا والدي .. أخي وأنا إلى القاهرة لنكمل دراستنا . وسكنت في بيت القبة، القاهرة كبيرة، والدنيا كبيرة والناس كثيرون. وما يملأ العين متنوع، وما يملأ الرأس لا حدود له. وما يوقظ الوجدان يتجدد يوما بعد يوم..

ولما انفتح باب بيتنا في القاهرة، تدفقت على رأسي دنيا جديدة . كانت على الحائط صورة ا. الصورة مفاجأة. بل إن الصورة كانت دعوة إلى وليمة تاريخية شهية. شيء غريب . فلم تكن صورة لمصطفى كامل الزعيم المصري. ولا صورة للملك . ولا حتى صورة لمنظر جميل من تلك التي اعتادت بيوتنا أن تزين بها الجدران أو تخفي تحتها الجدران.

لقد كانت صورة الزعيم التركي مصطفى كمال أتاتورك!

كانت مفاجأة ما أزال أحس بها حتى الآن. فقد هزتني بعمق فانطلق خيالي بعيدا. ورحت أسأل أبي والناس.

وسمعت من والدي رحمة الله عليه الشيء الكثير عن هذا الزعيم الإسلامي. سمعت الأعاجيب والأساطير أيضا عن أتاتورك.

وصناعة الأساطير صناعة شعبية عريقة، فمن عادة الشعوب أن ترتفع بأبطالها. كأنما ذلك نوع من الامتنان لهم، فالأبطال يرفعون الشعوب، والشعوب ترفعهم أيضا، وتبالغ في ذلك..

ولكن أتاتورك هذا قد التفت حوله آمال المسلمين الذين يحلمون بالتخلص من سلطان العثمانيين . وأتاتورك هو هذا الشاب المتحمس القوي الشجاع العنيد أيضا. فقد اشترك في الجيش العثماني في ليبيا وفي فلسطين.. ولم يغب عن عينيه أن القوات اليونانية تحتل أزمير، وقوات الحلفاء تحتل الأناضول... ومازال أتاتورك ينظم صفوف مؤيديه حتى كان له جيش. فلابد من القوة لتطبيق الفكرة. هذا شرط.

واستطاع أن يجلي القوات الأجنبية وأن يطرد السلطان محمد السادس وأن ينهي السلطنة ويعلن الجمهورية.

واتجه إلى الغرب وأسفرت المرأة عن وجهها.

ومن وراء هذا كله تطلع العالم الإسلامي إلى هذا النجم الصاعد.

ولم تكن قراءاتي في هذه السن الصغيرة تسعفني. فما الذي أستطيع أن أفعله؟ أو ما الذي يستطيع أن يفعله أعظم المفكرين السياسيين إذا لم تكن لديه قوة لتحقيق أحلامه... لا بد من قوة تسند الفكرة وترعاها وتحميها وتدفعها إلى مراحل من الحياة والحيوية..... لابد ولا أعرف كيف زارتني هذه الفكرة.. لعلي أكون قد تركتها في مكانها، ومضيت في حياتي درس.. ككل مواطن عادي.

وحدث شيء آخر شغلني وقتا طويلا، فعندما تخرجت في الكلية الحربية سنة 1938 كانت الدنيا في حالة من الرعب بسبب هتلر، إنه الزعيم النازي الجديد . والعالم كله يتحدث عن الحرب واقتراب وقوعها. وفي ذلك الوقت حدثت أزمة ميونخ. فهتلر قد قرر أن يحتل جزءاً من تشيكوسلوفاكيا. ووافقت إيطاليا وبريطانيا وفرنسا على ذلك... وعاد هتلر يطلب المزيد من الأرض، واعترضت بريطانيا .. وأخيرا اضطرت بريطانيا أن تبعث بتشمبرلين . ووافقت بريطانيا وفرنسا على مطالب هتلر.

وأحس تشمبرلين أنه قد انتصر . وأنه حقق السلام للعالم كله.. ولما عاد إلى بريطانيا قال للشعب الإنجليزى : لقد جئت لكم بالسلام والشرف.

ورأي المؤرخون أن تشمبرلين قد أجل نشوب الحرب العالمية. ورأي مؤرخون آخرون أن بريطانيا وفرنسا لو كانتا قد اعترضتا هتلر، لعدل عن الحرب نهائيا.

ولكن تخاذل تمشبرلين هو الذي أغراه بأن يذهب إلى أبعد مدى. وكان تشرشل هو الذي اعترض على تشمبرلين قائلا" لقد كان على بريطانيا أن تختار بين الحرب والعار. ولقد اخترنا العار. وسوف يفرض علينا القتال".

وصدقت نبوءة تشرشل بعد ذلك بقليل...

وفي هذا الجو المكهرب في العالم كله، وزعونا نحن الضباط الجدد لحراسة المرافق العامة في القاهرة.

ومن المؤكد أن مثل هذه الأحداث الصارخة تهز خيالنا كشبان. وتجعل السؤال الملح على رؤوسنا يتجدد ويكون أكثر وضوحا وبروزاً : ما الذي نستطيع أن نفعله؟...

أعود إلى اتاتورك... إنه لم يستطع أن يحقق شيئا دون أن يكون هناك جيش . ولابد أن يكون هذا تفكير الشبان في مصر كذلك... فالإنجليز يحتلون أرضنا، والساسة في مصر كذلك... فالإنجليز يحتلون أرضنا، والساسة يتجرون بالسياسة ويقدمون لنا طعاما فاسدا من أفكارهم وسلوكهم... إنهم أسوأ الأمثلة التي تعثرنا بها في حياتنا المبكرة، ونحن في ذلك الوقت نقرأ التاريخ، ونقرأ عن الزعيم المصري مصطفى كامل.

ونحن أطفال كنا ننام على مواويل زهران وعلى دنشواي وعلى مواويل أدهم الشرقاوي.. (كلها طلقات من نار... موجهة ضد قوات الاحتلال البريطانية .

ولم يعد شيئا غريبا وقد أمتلئ عقلي والتهب خيالي وازدحم وجداني ، أن أفكر في عمل شيء . وقد اتصلت بجميع الأحزاب السياسية . هذا بعد أن تخرجت في الكلية الحربية. أما أثناء التحاقي بالكلية، فلم أذهب إلى أي حزب. اللهم إلا حزب " مصر الفتاة" دخلت مصر الفتاة. وكنت أتلقى تدريبات عسكرية في عمارة في العتبة. في بلكونة كبيرة كانت تطل على سوق الخضار وفي البلكونة كانوا يدربوننا على المشية العسكرية..

وخشيت في ذلك الوقت أن يقوم البوليس بتفتيش مركز مصر الفتاة فيجدوا استمارتي ويجدوا اسمي وأنا ما أزال طالبا في الكلية الحربية..... لحسن الحظ لم يحدث لي شيء من ذلك.

ولكن بعد تخرجي في الكلية الحربية ازداد قلقي. وبدأت أطاوع قلبي ذهابا وإيابا إلى الأحزاب السياسية.

أحاول أن أجد تفسيرا أو راحة لما يدور في نفسي، إنني أحاول أن أجد تفسيرا أو راحة لما يدور في نفسي. إنني أحاول أن أجد صيغة فكرية تريحني. أو أجد شخصا يدلني على المعنى الذي يشغلني.

وكان أول عمل محدد إيجابي قمت به هو أنني اتصلت بعزيز المصري. وكان شريكا لأتاتورك في تركيا. وهو لذلك يستمتع بسمعة عظيمة جدا. وقد شارك في إنشاء جمعيات عربية كثيرة، عندما كان العالم العربي يغلي بالثورة ضد الأتراك. أو ضد تركيا التي أسموها في ذلك الوقت بالرجل المريض... وهذا الرجل المريض احتاج من أتاتورك إلى الكثير من القوة لينهض هذا المريض ويصبح شابا يلحق بركب الحضارة الغربية، ويستدرك ما فاته في ظل السلطنة العثمانية.

وبعد ذلك الحين اتصلت بالإخوان المسلمين. كل ذلك وغيره، حدث بعد أن تخرجت في الكلية الحربية. وكان اتصالي بالشيخ حسن البنا فقط. وناقشته كثيرا. واختلفنا. هو يزيد أن ينطوي تنظيما في الجيش تحت أجنحة الإخوان المسلمين. وكان هدفنا في الجيش أن ننتظم وأن نعمل من أجل مصر. وقلت للشيخ حسن البنا: أحب أن أواجهك بصراحة. لقد قررنا أن يكون تنظيمنا من أجل مصر وحدها. وليس من أجل هيئة أو حزب أو شخص:

كان ذلك سنة 1940 وقد ألقى القبض على بعد ذلك سنة 1942 ودخلت المعتقل.

ولما جاء جمال عبد الناصر من السودان التقى بالشيخ حسن البنا: وصارحه بنفس الموقف. وظل هذا موقفنا منذ ذلك الحين حتى اليوم، ومن المؤكد أن هذا الموقف أو هذه الفلسفة من أعظم ما نفخر به.... فحركتنا كانت مصرية قومية. وأعتقد أنني أصلحت بعض " اللخبطات" التي وقعت في الفترة الماضية، وأزلت كل شبهة....

وكل شيء واضح تماما الآن: من نحن وماذا نعمل ومن أجل من وفي سبيل أية غاية.

وتوالت اتصالاتي بالهيئات والأحزاب، أريد أن أعرف، أو أريد أن أعرف ما الذي يفكر فيه الآخرون من أجل أن يعملوا ما ينفع مصر. ثم طردت من الخدمة العسكرية . واعتقلت . وأفرج عني. وسجنت وأفرج عني.

وعندما ألف على ماهر هيئة حزبية وكان مقرها في شارع قصر النيل، كنت أول من دق الباب، وبنفس السرعة والحماس الذي دخلت به، خرجت أيضا. فلم أجدد ما يريحني- وأدرت رأسي أبحث عن اتجاهات أخرى.

أو عن مصدر الفكر الجديد أو ينابيع جديدة أو رياح منعشة...

ولكني أقرر هنا أنني لم أتصل بأي تنظيم شيوعي.

ربما مرة واحدة.... فقد أخبرني أحد الزملاء أن هناك مركزا في شارع المبتديان ... وهذا المركز عبارة عن قاعة للمحاضرات. وأنه لا مانع أن يذهب الإنسان ويستمع إلى ما يقوله الآخرون.

وقال لي زميلي هذا: أنت شاب وتشتغل بالفكر السياسي. وفي حالة قلق . وتريد أن تعرف . وأن ترسو سفنك على بر الأمان. اذهب واسمع . وفكر . وقرر بعد ذلك.

وذهبت . ودخلت . وكانت القاعة صغيرة. الجدران مغطاة بصحف الحائط. وكان هناك من يقرأ ما جاء في هذه الصحف. واستشرت وجداني. وأحسست أن هناك شيئا مريبا. هناك شيء غير طبيعي.

وبعد أيام قليلة جاء البوليس وحاصر المكان وهاجمه وقبض على الناس وعلى صحف الحائط، ولستر الله لم يكن البوليس يراقب المكان يوم ذهبت إلى هناك...

وإلا كانوا اعتقلوني. ولم يكن من الصعب أن أدرك أنها خلية شيوعية.

ولو سألت نفسي: ما هي بالضبط معلوماتي عن الشيوعية في ذلك الوقت، لكان جوابي في مثل هذه السن، لم تكن ثقافتي واسعة. ولكن آمالي واسعة وعريضة.... والمسافة ما تزال كبيرة بين الذي أحلم به وبين الذي أقدر عليه... ومن هنا كان إعجابي بأتاتورك الذي لم يحقق ما كان يحلم به إلا مستعينا بالجيش ...

وقد شغلني كمال أتاتورك كزعيم ومثل أعلى.. وفي ذلك الوقت كنت أقرأ كتابا عن اسمه" الذئب الرمادي" من تأليف أرمسترونج . وهذا الكتاب تحفة أدبية.

فأسلوب سهل. ويستطيع من هو في سني وعنده مثل معلوماتي الإنجليزية المحدودة. أن يقرأه ويستمتع . ولم تكن لغتي الإنجليزية قد أصبحت قوية بعد. وإن كانت قد تحسنت بسبب ميلي الشديد للغات التي تعلمتها وراء القضبان...

وهذا الكتاب كان كنزا وقع في يدي. أو كنزا وقعت أنا عليه... وأستحوذ هذا الكتاب على خيالي. وقد حدث أن كنت مبعدا في الصحراء الغربية بأمر من المخابرات المصرية والبريطانية. أثناء الحرب العالمية الثانية، في منطقة اسمها الجراولة جنوب مرسى مطروح. ولكن هذا الكتاب هون على هذه الوحدة الأليمة في هذه المنطقة الصحراوية. وأذكر أنني بلغت منتصف الكتاب سعيدا بما أقرأ وما أرى، وسعيدا بالعالم الباهر الذي وضعه المؤلف أمام عيني .. واستدعوني لأن لي صلة بعزيز المصري الذي سقط بطائرته .. عند قليوب ومعه اثنان من الطيارين هما : حسين ذو الفقار صبري وعبد المنعم بعد الرءوف.

وحملوني في سيارة ماركة فارجو صغيرة من مرسى مطروح، وكانت سرعتها لا تزيد على ستة كيلو مترات نمت فيها طول الليل. وصحوت من النوم لأجد السيارة قد شردت في الصحراء. ولكن حمدا لله أنها لم تصطدم بسيارة أخرى.

وكانت رحلة شاقة. ووصلنا عن الطريق الصحراوي إلى الجيزة. وضابط الحرس المرافق التي لديه أن يأتى بي فورا إلى وزارة الحربية. ولم أذهب إلى البيت لأغير ملابسي أو أغسل وجهي. وجلست على مقعد . وفتحت كتاب " الذئب الرمادي". ومضيت أقرأ مستغرقا تماما، أعوض ما فاتني في تلك الليلة الأليمة . ولم أدر أن بابا قد انفتح وأن أحدا وقف ينظر ناحيتي. وحدث ما يحدث لكل إنسان عادة عندما ينظر إليه أحد دون أن يدري... وبسرعة يرفع رأسه ليجد هذا الذي ينظر إليه. وفعلت كذلك. ووقفت بسرعة وأعطيت التعظيم العسكري التمام وألقيت الكتاب إلى جانبي. ولم يكتف هذا الذي عظمته بهذه النظرية الكاسحة وإنما قال : هوه ده أنور السادات!

وخرج وعرفت أنه إبراهيم عطا الله رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية. ولم يكلف هذا الرجل خاطره أن يسأل عن هذا الكتاب الذي أنساني الدنيا من حولي.... ولو فعل لأضاف اتهاما جديدا غير مجرد الاتصال بعزيز المصري.

وفي ذلك الوقت كانت ثقافتي عادية جدا. لم أقرأ الكتب الشيوعية ولا الماركسية. ومن المعاني العميقة في نفسي وفي نفس كل مصري أن الشيوعية إلحاد، وكفر وأنهم أناس فوضويون. لا

قيم عندهم . ولا يهمهم دين وأنا ككل مواطن قروي يرى أن المساس بالدين شيء فظيع. وإذا كان الإنسان بلا دين فكل شيء عنده مباح....

ومعنى ذلك ضياع كل ما هو إنساني، وإهدار كل ما هو عظيم وعدل وجمال وحرية وإنسانية، فأنا بطبعي الريفي المؤمن أرفض ذلك ومن أول لحظة.

وقد حدث لي ذلك عندما زرت تلك الخلية المريبة المشبوهة في المبتديان. فقد كانت شيوعية. وذلك الزميل الذي دعاني، أراد أن يستغل قلقي وحيرتي بحثا عن عمل إيجابي من أجل مصر... ولكنني لم أطاوعه وإنما فقط تركته وذهبت ودخلت وكانت أول مرة وآخر مرة...

إذا كانت صورة أتاتورك على جدار بيننا هزت فإن صورة أخرى قد زعزعت إيماني بالشيوعية، وزادت تمسكي بديني وقيمي الأخلاقية...

فقد بدأت الحرب وأنا أتابع كل ما يجري وفي يدي الخرائط. وخيالي ملتهب لأنني قد عايشت المعركة من أولها لآخرها...

وفي بداية الحرب اتفق هتلر وستالين... وبعد ذلك تسلل بينهما تشرشل يدق أسفينا بين الزعيمين ..

وفي سنة 1941 أندفعت قوات هتلر تغزو الاتحاد السوفيتي- ومقدمات هذه الحرب وحوادثها ونتائجها المعروفة للجميع- واتحد الحلفاء مع روسيا ضد هتلر ، وأعلن تشرشل أنه مستعد أن يتحالف مع الشيطان ، وكان الشيطان هو ستالين. لأن المهم عنده في ذلك الوقت ضرب هتلر.

إذن لقد تحالف الغرب مع ستالين. أي تحالفوا مع الرجل الذي قالوا إنه ملحد ولا أخلاق له، وإن الشيوعية هي دعوة إلى تمزيق الأسرة وتحطيم كل القيم الباقية، وفي ويم وليلة رأيت في شوارع القاهرة المظلمة صورا كثيرة للأقطاب الثلاثة : روزفلت الأمريكي وستالين الروسي وتشرشل الإنجليزي. وأهم من هذه الصور التي ملأت الدنيا، ظهرت الكتب التي تمتدح ستالين والشعب السوفيتي البطل الذي يقاوم هؤلاء الوحوش النازيين..

إذن لقد كان الروس وحوشا أول الأمر، فما حاربهم هتلر- أصبحوا ملائكة. واستحقوا عظيم الاحترام... إذن ما الذي جرى؟ وكيف تحول هذا الوحش التتاري ستالين إلى بطل أسطوري؟.

حاولت أن أعرف وتساءلت . وانشغلت بذلك كثرا. ولا بد أن كثيرين من الذين عايشوا هذه الحرب قد فكروا مثلي. وانتهيت إلى هذا المعنى الذي أقنعني : لا شيء سوى المصلحة.

وانتهت الحرب وانتصر الجميع على هتلر. أي انتصر الروس والأمريكان والحلفاء. ومع أضواء النصر التي ملأت كل عواصم الدنيا والقاهرة أيضا، توارت صورة ستالين!

في ذلك الوقت أضاءت نفسي هذه الحقيقة: أن تشرشل هذا ليس عدوي!

صحيح أنا أعجب بتشرشل كمواطن إنجليزي خدم بلاده، وكتب مذكرات جميلة وعميقة. ولكن أترك هذا للإنجليز يفخرون به ويمجدونه على قدر استطاعتهم . ولكنه أولا وأخيرا عدوى. لأنه عدوى فأنا لا أصدقه.

ومن الواجب أن أفعل ذلك. فإذا قال عن إنسان أنه ملاك قلت: بل شيطان!

وإن قال عن أحد أنه شيطان : قلت بل ملاك من السماء!

وهذا التشدد والتزمت يتفق تماما مع مزاج شاب في الثالثة والعشرين جاء من أعماق الريف. فلا عنده مرونة عقلية. ولا عنده ثقافة كافية، ولا عنده تجارب. فعالمي ما يزال محدودا. والألوان على لوحة حياتي شديدة الوضوح : أبيض وأسود ألوان صريحة لم أعرف بعد تلك الألوان التي تتداخل وتتعقد.. ليس بعد!

وأقنعني أيضا خاطر آخر قد استقر في نفسي: أن تشرشل هو الذي أتى لنا بهؤلاء الناس.

وشعرت بالقرف من هؤلاء الناس. ولم أتصل بأحد منهم بعد ذلك. حتى قامت ثورتنا. وكنت مسئولا عن الصحافة والإعلام.

وأول مرة كان احتكاكي بواحد منهم.. لقد كان عبد الرحمن الشرقاوي. في ذلك الوقت كان قد كتب قصيدة عنوانها: رسالة إلى ترومان" بعد إلقاء الأمريكان للقنبلة الذرية على هيروشيما.. وكانت شعرا في غاية الجزالة والجمال . وجاءني يستأذن في نشرها. وقرأتها . أعجبتني بل تمايلت طربا. واقترحت عليه أن يغير كلمتين أو ثلاثا ليكتمل جمال القصيدة. وصرحت بنشرها لأن شكلها الفني قد هزني . ولم أكن أعرف أنها قصيدة شيوعية. وقد أخبرني زملائي في مجلس قيادة الثورة بذلك. وسألوني كيف أجيز عملا شيوعيا. وكان ردي أنها عمل فني ولذلك أجزتها!

وبعد ثورتنا واجهتنا ظروف غريبة، هذه الظروف ساعدت على أن نتجه إلى الروس ونقترب منهم ونصطدم بهم.

فقد ظلت علاقتنا بالروس كالسحب الكثيفة إذا سقطت مطرا صفت السماء ولكن غرقت الأرض! فبعد شهرين من قيام الثورة لم تكن السفارة البريطانية في القاهرة، ولا الإمبراطورية البريطانية تعرف شيئا عن ثورتنا ولا من الذين أشعلوها. والذين أشعلوها رفضوا الاتصال بالسفارة البريطانية. بينما كانت هناك علاقة بيننا وبين الأمريكان. وطلبنا إلى الأمريكان أن يشرحوا الموقف للإنجليز. ونحن لا نريد أن ندخل في حوار معهم. فما يزال 85 ألف جندي يحتلون أرضنا منذ سبعين سنة.. بيننا وبينهم كوارث ودماء. ومن أجل هذا كانت ثورتنا لتصحيح هذا التاريخ.

وقد عاقبنا الإنجليز على عدم الاتصال بهم بأن حظروا علينا السلاح. وكانت بريطانيا هي المورد الوحيد. ولم نكن قد عرفنا أمريكا جيدا.فأمريكا لم تدخل المنطقة إلا متأخرة، أي بعد الحرب العالمية الثانية أي بعد غياب شمس الإمبراطوريتين : بريطانيا وفرنسا. وكان من سياسة أمريكا فيما بعد أن تضع حزاما من الأحلاف حول الاتحاد السوفيتي.. ولكن أسلوب أمريكا له اسم آخر هو: الاستعمار الجديد... أي استعمار بدون أساطيل وجيوش وإنما استعمار اقتصادي عن طريق البيع والشراء وخصوصا بيع السلاح..

ولما حاولت أمريكا أن تعطينا بعض السلاح احتجت بريطانيا، وهذا هو السبب المباشر في عدول أمريكا عن بيع السلاح لنا، فبريطانيا كانت وما تزال ترى أننا في داخل مناطق نفوذها!

وتفصيل ذلك : أننا اتصلنا بالأمريكان ووصفنا لهم الوضع العجيب في الجيش المصري وكيف يكون حاله وهو بلا سلاح نشتريه من بريطانيا. هنا طلب منا الأمريكان سنة 1953 أن نوفد بعثة عسكرية إلى أمريكا . ووصلت البعثة ولم يقابلها مسئول أمريكي واحد. رغم أنهم هم الذين دفعونا ودعونا إلى ذلك..

وعادت السفارة الأمريكية في القاهرة تفتح موضوع السلاح وحاجاتنا إليه. وقيل لنا يومها : لا داعي لشراء السلاح، سوف نعطيكم السلاح مجانا لو ...

وجاءت كلمة" لو" هذه لغما تحت أقدامنا...

" لو" وقعتم على ميثاق أمن متبادل، سوف نعطيكم السلاح مجانا، ولم يقتنع الأمريكان بأن مجانية السلاح لا تهمنا، وإنما نريد أن ندفع ثمن السلاح. فليس هذا الثمن بالكثير إذا احتفظنا مع السلاح بحريتنا.

وكان الميثاق الذي تريدنا أمريكا أن نوقعه يشترط وجود بعثة أمريكية تدرب الجيش المصري، وقد جربنا قبل ذلك البعثة العسكرية البريطانية. ونحن نعلم علم اليقين أن بعثة أمريكية لن تكون إلا إحياء لبعثة تسيطر على الجيش المصري.

وأغرب من ذلك أن الميثاق ينص على ألا نستخدم هذا السلاح في محاربة حلفاء أمريكا!

يعني إسرائيل. كيف؟

ومعنى ذلك أن بريطانيا ضغطت على أمريكا حتى لا تسلحنا. لقد حوصرنا تماما، فقد أقفلت في وجوهنا كل أبواب السلاح حتى لا نشتري أي سلاح من الغرب فلماذا لا نتجه إلى الاتحاد السوفيتي نشتري منه السلاح اللازم لنا. فلدينا القطن. والقطن عملة صعبة. واتصلنا بالسفارة الروسية.

وفي ذلك الوقت كان ستالين في أيام حكمة الأخيرة. وجاء الرد من ستالين. يقول : نأسف . فنحن إذا بعنا لكم السلاح فسوف تحاربوننا به!

وليس هذا غريبا من ستالين، أو غريبا عليه. فهو رجل شيوعي متزمت متعصب، لا يساعد إلا الدول الشيوعية، وإذا ساعدها فلابد أن يتسلط عليها، ولم نكن شيوعيين ولا نريده أن يتسلط علينا.

ومعركة الرئيس تيتو- وهو شيوعي- مع ستالين هي من أعظم معارك التاريخ . وتيتو هذا الذي دوخ ستالين أيضا، بل انتصار تيتو على السوفيت يعتبر من وجهة نظري أعظم وأروع وأشجع إنجازات يوغوسلافيا!

ولم يبق أمامنا إلا أن نستخدم الأسلحة المتواضعة ضد الإنجليز في القناة، وكانت حرب عصابات مصرية معروفة ومشهورة . وهذا هو الذي جعل الإنجليز يوافقون على اتفاقية الجلاء في أكتوبر 1954 ليجلوا بعدها في يونيو 1956 ....

أن هذه القنابل التي صنعت في مصر هي التي أزعجت الإنجليز، الذين جاءوا يدافعون عن الإمبراطورية، فوجدوا انهم في حاجة إلى الدفاع عن أنفسهم!

في ذلك الوقت كان إيدن وزير خارجية بريطانيا، ونجمها الصاعد الذي تعده الإمبراطورية ليشغل مكان تشرشل. ورأي إيدن أن يواجه جلاء القوات البريطانية بملء" الفراغ" الذي

يظهر بعد خروجها من المنطقة، فاخترع شيئا جديدا اسمه" حلف بغداد" يضم تركيا والعراق ، وانضمت بريطانيا وإيران وباكستان في سنة 1955 . ثم أنسحب معه العراق سنة 1958.

وواضح أن الغرض من هذا الحلف أن تظل هذه المنطقة كلها تحت النفوذ البريطاني.

وأن تظل بريطانيا موجودة حاضرة في هذه المنطقة كلها. ووجد إيدن في نوري السعيد ذلك البوق والأداة التي يحركها في هذه المنطقة لتدعو الدول العربية الأخرى للدخول في حلف بغداد.

وقامت قيامة مصر على حلف بغداد وعلى الدخول في الأحلاف ومناطق النفوذ وضد القواعد الأجنبية على أرضنا وأية أرض أخرى.

وفي ذلك الوقت زار صلاح سالم مدينة سرسنك شمال العراق. وبعدها جاء نوري السعيد إلى القاهرة وكان يتصور في ذلك الوقت أننا سوف نأخذه بالأحضان وقابله جمال عبد الناصر وحاول إقناعه بأننا مختلفون عنه تماما. وبعد ذلك شددنا الحملة عليه وعلى إيدن وعلى بريطانيا.

وبسرعة جائنا اثنان: الملك حسين وكميل شمعون. الملك حسين ابن عم الملك فيصل ملك العراق وموافق على كل خطواته طبعا. أما شمعون فهو انجليزي منذ كان سفيرا للبنان في لندن، وليس فرنسيا كمعظم الموازنة وبشارة الخوري هو الذي عين كميل شمعون، ثم طعنه شمعون وندم بشارة الخوري على ذلك ، ولكن جاء الندم متأخرا جدا!

الصورة الآن واضحة : أننا عادينا بريطانيا وأحلافها في المنطقة. وزعزعنا الثقة فيها . وأثرنا عليها وعلى الحكومات العملية غضب الشعوب العربية... ثم إن هناك خطورة من هذه الثورة المصرية الشابة..

ومن الطبيعي أن تتخذ بريطانيا موقفا سريعا ترد على هذه الحملات العنيفة في كل مكان. هنا حدثت نقطة تحول هامة جدا في الطريق الضيق بين موسكو والقاهرة.

ولكن هذا التحول جاء بعد حادث مفاجئ مروع وقع في يوم 28 فبراير سنة 1955 ! فقد أوعزت بريطانيا إسرائيل أن تقوم بعملية خاطفة جدا.... فهاجمت بقواتها السريعة الحركة غزة. وقتلت أربعين مواطنا . وانسحبت القوات الإسرائيلية . ولم نستطع أن نواجه هذه العمليات السريعة بما لدينا من لوريات وأسلحة متواضعة.

وفهمنا أن المقصود من هذه العملية هو تأديب مصر لكي تعرف وزنها وحجمها في هذه المنطقة.

هنا أفقنا تماما. وفكرنا جيدا في أن نتجه إلى الاتحاد السوفيتي.

هل أدت مكالمة تليفونية من شوان لاي إلى أن اتخذ السوفيت قرارا مفاجئا عجيبا لم يحدث له نظير بعد ذلك إلا مرة واحدة... ثم لم يتكرر ولن يتكرر مثل هذا القرار الذي اتخذوه لصالحنا... وبصورة مفاجئة !